

الفصل الأول 1



معنى اللغة ووظائفها

- معنى اللغة.
- وظائف اللغة.

الفصل الأول معنى اللغة ووظائفها

معنى اللغة

لقد حاول الفلاسفة منذ أرسطو وحتى يومنا هذا حل لغز اللغة البشرية وتمييزها عن اللغة التي يستخدمها الحيوان، ولكنهم لم يتوصلوا إلى نظريات قاطعة ومتفق عليها حول أصل اللغة البشرية والطريقة التي تطورت بها. إلا أن الدراسات والتجارب التي قام بها علماء النفس اللغويين (Psycholinguists)، والتي كان بالإمكان إخضاع فروضها للتحقق عن طريق الملاحظة والتجريب في سلسلة من التجارب والدراسات الميدانية النفسية، جرى التركيز فيها على كيفية اكتساب الإنسان للغة وعلاقة ذلك بالنواحي الفسيولوجية والعصبية العقلية؛ بالمقارنة مع اللغة غير البشرية؛ قد أُلقت الضوء على طبيعة اللغة عند الإنسان.

للتوصل إلى حقائق تساعد على الإجابة عن التساؤل حول ماهية اللغة، كان لابد للباحثين من التطرق إلى أمور عديدة منها: العلاقة بين اللغة والتواصل، والعوامل الفطرية التي تعد الطفل لفهم اللغة البشرية والتعبير عنها، وتأثير البيئة على اكتساب الطفل للغة، والعلاقة بين الفهم والكلام، وبين اللغة والتفكير.

لاشك أن التواصل هو إحدى وظائف اللغة، ولكن هناك تواصل غير لفظي أيضاً. في حين أن التعريف المتفق عليه نسبياً للغة البشرية أنها: "التعبير عن المشاعر والأفكار وكذلك استقبالها عن طريق الرموز اللفظية".

وهذا التعريف يوحد بين اللغة البشرية وبين الكلام، وفي نفس الوقت يميز بينها وبين نظم الإشارات غير اللفظية، والتي نجدها في حياتنا اليومية (في إشارات وتعليمات المرور، وأمام المدارس والمستشفيات و...إلخ)؛ وعند الأطفال الذين يتواصلون مع الأم والآخرين من حولهم عن طريق البكاء أو الإشارة باليد أو تعبيرات الوجه، وعند الحيوانات التي تعبر بالصوت والحركة عن الحالة الانفعالية أو الاحتياجات المادية. وجميع هذه الإشارات غير

اللفظية، ما هي إلا أشكال من المثيرات التي ترتبط بشكل مباشر بالأشياء التي تشير إليها. ومن هنا نتضح لنا خصائص اللغة البشرية اللفظية وإمكاناتها التي لا حدود لها، والتي خص الله الإنسان بها دون غيره من المخلوقات.

لقد توصل علماء اللغة إلى العديد من الخصائص التي تتميز بها اللغة البشرية، ليس هذا مجال تفصيلها، ونكتفي هنا ببعض هذه الخصائص التي يفيد التعرف عليها في تنمية وتطوير لغة الطفل.

أخذاً في الاعتبار الجوانب المختلفة للغة البشرية، يلخص محمد عماد الدين إسماعيل هذه الخصائص في الجوانب التالية:

(أ) الجانب الصوتي، أو المجموعة من الوحدات الصوتية التي يتكون منها سياق الكلام (phonetics).

(ب) جانب الدلالات، أي المعاني التي تحملها هذه الأصوات (semantics).

(ج) جانب التركيبات، أي الجمل والعبارات التي تتجمع فيها الوحدات الكلامية (syntax).

(د) جانب الوظيفة، أي اللغة باعتبارها أداة للتواصل ووظيفة التفاعل الاجتماعي (pragmatics).

1- من الناحية الصوتية، تتميز اللغة البشرية بالقدرة الهائلة على التشكيل ففي كل لغة توجد الآلات من الكلمات المختلفة التي تتشكل من عدد صغير من الأصوات المفردة (phonemes) وهي، نطقاً، الأحرف الساكنة والأحرف المتحركة والحركات الهجائية المتصلة (diphthongs)، التي ليست لها دلالة بذاتها. فعدد الفونيمات في اللغة الإنجليزية مثلاً لا يتجاوز 54 وحدة، وبعض اللغات لا تستخدم أكثر من 20 "فونيم"، في حين أن البعض الآخر قد يصل إلى الستين. وتسمى هذه الخاصية بخاصية "الازدواجية في التشكيل". وهي مالا يوجد إلا في اللغة البشرية وحدها.

2- أما من حيث الدلالة فقبل أن نتحدث عما تتميز به اللغة البشرية من هذه الناحية، لابد أن نقرر أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتعامل مع الأشياء التي ليس لها وجود إلا على مستوى تخيلي صرف، أو بمعنى آخر، تلك التي لا تشكل جزءاً من موقف عيني راهن. هذه القدرة على استحضار الأشياء في غير وجودها،

وعلى الاحتفاظ بآثارها الحسية، هي التي تجعل من الرموز اللغوية عند الإنسان شيئاً يختلف اختلافاً جوهرياً عن اللغة الإشارية التي يمكن لبعض الحيوانات الراقية أن تكتسبها.

فالرموز في اللغة البشرية لا تقتصر في دلالاتها على مجرد الإشارة لما هو موجود هنا والآن، بل يتعدى ذلك إلى ما ليس له هذا الوجود الواقعي. فليس من الضروري، خلافاً لما هو الحال في اللغة الإشارية، أن يكون الشيء الذي يشير إليه الرمز اللغوي موجوداً في المجال الحسي للمتكلم، لكي يتم تعيينه أو تحديده أو التعرف عليه. بل إن الإنسان ولم ينظم بعد، سرعان ما يتعلم أن يعبر عن شيء (أو مفهوم لشيء) عن طريق رمز لغوي؛ يشير إلى ذلك الشيء، إلا أنه في نفس الوقت ينفصل تماماً عنه. فقد يلفظ الطفل مثلاً كلمة "مياو" وهو يجرد وراءه كتلة من الصلصال تمثل القطعة، في حين لا تكون القطعة ذاتها موجودة. وربما استخدم الطفل هذا اللفظ في سياق آخر ليعني أنه "يريد" القطعة أو "أين" القطعة أو أن القطعة "ذهبت"، دون أن يكون للقطعة وجود في حاضره الحسي.

ولا يلبث الإنسان أيضاً - بفضل القدرات السابقة الإشارة إليها - أن يستخدم الرموز اللغوية للتعبير عن الأحداث الغائبة عنه زماناً، وليس فقط مكاناً. فالإنسان يستطيع أن يستخدم اللغة "ليتذكر"، أي للدلالة على الحوادث والأحداث الماضية، وليس فقط عن الحاضر غير المتواجد.

وإلى جانب قدرة الإنسان على استخدام رموز لغوية للتعبير عن الأشياء والأحداث البعيدة عنه زماناً ومكاناً، كذلك يستطيع الإنسان أن يستخدم الرموز اللغوية للتعبير عن الأحداث والأشياء البعيدة عن الحقائق الواقعة، أي تلك التي لا تعدو عن كونها مجرد افتراضات. فالإنسان هو الوحيد الذي يمكن أن يقول مثلاً "لو كان القمر يضيء بالنهار" أو "لو كان الثلج أسود اللون". ويدخل ضمن هذه الدائرة من الدلالات التعبير عن النتائج المتوقعة للأحداث أو الاحتمالات التي يتضمنها المستقبل وهكذا. باختصار فإن اللغة البشرية لا ترمز فقط للواقع بل ترمز أيضاً للممكن.

هذه الأبعاد الثلاثة للدلالة، التي يتجاوز بها اللغة البشرية مجرد الإشارة لما هو مجرد هنا والآن: وأعني بها 1- التعبير عن الماضي. 2- التعبير عن الغائب. 3- التعبير عن الممكن، تجعل من اللغة البشرية شيئاً أشبه بالعربة التي يجمع فيها الإنسان الأحداث الماضية، لكي يعالج الأشياء التي ليس لها وجود عيني في الحاضر ولكي يسقط خبراته على المستقبل مخططاً إياه بناءً على ما يتصوره من توقعات أو من نتائج محتملة.

3- أما من حيث التركيبات اللغوية فإن اللغة البشرية وحدها هي التي يمكن أن تصاغ فيها من الوحدات الكلامية (أي الكلمات) تركيبات أخرى ذات دلالة هي الجمل والعبارات المختلفة، التي يستطيع عن طريقها الإنسان أن يعبر عن أي تفكير إنساني محتمل. ولهذه التركيبات قواعد وأصول. وبصرف النظر عن معرفتنا أو عدم معرفتنا بهذه القواعد فإننا نتبعها بالضرورة كأساس لنقل المعنى المقصود. فالإي جانب القدرة على تعلم معاني الكلمات فإن الإنسان يستطيع أيضاً أن يتعلم كيفية وضع كلمات قديمة في صيغ جديدة. بل ويستطيع أيضاً أن يقوم بعمل صيغ لا تنتقل فقط المعنى المباشر بل تنتقل كذلك معنى ضمناً غير مباشر، وذلك كما في الكناية والصيغ البلاغية الأخرى كأن نقول مثلاً: "فلان كثير الرماد" يعني أنه كريم وجواد.

4- وأما من الناحية الوظيفية فتختص اللغة البشرية بأن أدواتها (الكلمات والجمل والتعبيرات وغير ذلك)، ليس لها صفة الرمزية فحسب، بل إن المعاني التي تحملها هذه الرموز (أي الأشياء والمفاهيم التي تشير إليها)، يحددها المجتمع الذي تعيش فيه اللغة - ليس هذا فقط بل إن الموقف الذي يستخدم فيه التعبير اللغوي يكون له دخل أيضاً في اختلاف ذلك المعنى. بعبارة أخرى فإن نفس الألفاظ قد تعني شيئاً في موقف معين وتعني شيئاً آخر في موقف آخر. فإذا قال الأستاذ للطالب مثلاً: إن التقدير الذي حصلت عليه هو "مقبول"، ورد عليه الطالب بقوله "شكراً"، فإن نبرة صوت اللفظ لكلمة "شكراً" قد تنقل له معنى الامتنان إذا كان الطالب قد توقع من أدائه في امتحان هذا المقرر تقدير "ضعيف جداً". ولكن إذا كان قد توقع أن يحصل في هذا المقرر على تقدير ممتاز فإن نبرات صوته عند اللفظ بنفس الكلمة سوف ينقل إلى الأستاذ معنى مختلفاً تماماً (محمد عماد الدين إسماعيل، 1995، 230-232).

وسواء كانت هي الأجهزة الصوتية، أو الجهاز العصبي المركزي الأكثر تأثيراً في عدم قدرة الحيوان، بما فيها الحيوانات العليا، على إصدار لغة قريبة من اللغة البشرية؛ فإنه من المؤكد وجود عملية نضج فسيولوجي كأساس للنمو اللغوي. والمتتبع لسير نمو لغة الطفل يجده موازياً لنموه الحركي والنضج الذي يحققه؛ وأي خلل في النضج الفسيولوجي للمخ، أي في مناطق الترابط في المخ اللازمة لنمو الوظائف الكلامية، ينتج عنه بالضرورة صعوبات ونقص في النمو اللغوي.

وهكذا، "ميز علماء اللغة بين نوعين من اللغة الصوتية النوع الأول: اللغة الانفعالية أو

الطبيعية الوجدانية (evocative) والتي بواسطتها يعبر الإنسان عن انفعالاته المختلفة، والنوع الآخر: اللغة الرمزية (symbolic) والتي هي لغة التفكير والإدراك والوجدان أيضاً. وهذا التقسيم مبني على حقائق علمية استخلصت من دراسات في علم وظائف الأعضاء (physiology) ثب معها أنها في حالة فقدان الحديث نتيجة اضطراب في المخ (الأفازيا) يفقد الإنسان اللغة الرمزية وتبقى اللغة الانفعالية. وسنتناول هنا اللغة الرمزية التي خص الله الإنسان بها دون غيره من المخلوقات.

يعرف علماء النفس اللغة: "بأنها الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحليل أي صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصها، والتي بها يمكن تركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا أو أذهان غيرنا بواسطة تأليف كلمات ووضعها في تركيب خاص"، والواقع أن هذا التعريف يتضمن ليس فقط كيف تعمل اللغة بل وظيفتها أيضاً.

يستفاد من التعريف السابق أنه إذا نطق أحدنا، وليكن يوسف، بجملة وسمعها شخص آخر، لنقل محمد، فإنه حصل في الحالة الأولى إرسال أو تعبير عن صورة ذهنية مدركة مرتبة ترتيباً ذهنياً معيناً لدى يوسف وتم استقبال أو تلقي صورة ذهنية أخرى في الحالة الثانية لدى محمد، قد تكون مطابقة لتلك التي قد تكون في ذهن يوسف وربما لا تطابقها. وسواء أكانت الصورة الذهنية متطابقة أم غير مطابقة فإن اللغة في هذه الحالة قد أدت وظيفتها السيكلوجية. ولكن للغة وظيفة أخرى بالإضافة إلى وظيفتها كوسيلة للتعبير عن أفكار الإنسان المتكلم أو وجدانه، وهذه الوظيفة أنها تحدث استجابات لدى السامع للكلام. وكثيراً ما تعجز اللغة عن أداء وظيفتها هذه لاختلاف الحالتين العقليتين في ذهن المتكلم والسامع. ويكون اختلاف الصورتين الذهنتين في الغالب راجعاً إلى اختلاف في خبرات كل منهما وذاكرته وتخيله ودقة استعماله للكلمات والجملة". (هدى الناشف، 1999: 11)

وظائف اللغة

مما سبق يتضح لنا أن اللغة تقوم بوظائف عدة بالنسبة للإنسان، يمكن إجمالها في ثلاث وظائف رئيسية هي:

- وظيفة الاتصال.
- وظيفة عقلية.
- وظيفة ثقافية حضارية.